

تفسير ابن كثير

اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمْدُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ

وقوله تعالى جوابا لهم ومقابلة على صنيعهم : (الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون) وقال ابن جرير : أخبر الله تعالى أنه فاعل بهم ذلك يوم القيامة ، في قوله : (يوم يعمهون) يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب (الآية [الحديد : 13] ، وقوله تعالى : (ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين) [آل عمران : 178] . قال : فهذا وما أشبهه ، من استهزاء الله تعالى ذكره ، وسخريته ومكره وخديعته للمنافقين ، وأهل الشرك به عند قائل هذا القول ، ومتأول هذا التأويل . قال : وقال آخرون : بل استهزاؤه بهم توبيخه إياهم ، ولومه لهم على ما ركبوا من معاصيه ، والكفر به . قال : وقال آخرون : هذا وأمثاله على سبيل الجواب ، كقول الرجل لمن يخدعه إذا ظفر به : أنا الذي خدعتك . ولم تكن منه خديعة ، ولكن قال ذلك إذ صار الأمر إليه ، قالوا : وكذلك قوله :

(ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين) [آل عمران : 54] و (الله يستهزئ بهم)
على الجواب ، والله لا يكون منه المكر ولا الهزاء ، والمعنى : أن المكر والهزاء حاق بهم
وقال آخرون : قوله : (إنما نحن مستهزئون الله يستهزئ بهم) وقوله (يخادعون الله وهو
خادعهم) [النساء : 142] ، وقوله (فيسخرون منهم سخر الله منهم) [التوبة : 79] و
(نسوا الله فنسيهم) [التوبة : 67] وما أشبه ذلك ، إخبار من الله تعالى أنه يجازيهم
جزاء الاستهزاء ، ويعاقبهم عقوبة الخداع فأخرج خبره عن جزائه إياهم وعقابه لهم منخرج
خبره عن فعلهم الذي عليه استحقوا العقاب في اللفظ ، وإن اختلف المعنيان كما قال
تعالى : (وجزاء سيئة سيئة مثلها) [الشورى : 40] وقوله تعالى : (فمن اعتدى عليكم
فاعتدوا عليه) [البقرة : 194] ، فالأول ظلم ، والثاني عدل ، فهما وإن اتفق لفظاهما
فقد اختلف معناهما . قال : وإلى هذا المعنى وجهوا كل ما في القرآن من نظائر ذلك . قال :
وقال آخرون : إن معنى ذلك : أن الله أخبر عن المنافقين أنهم إذا خلوا إلى مردتهم قالوا :
إنا معكم على دينكم ، في تكذيب محمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به ، وإنما نحن
بما يظهر لهم - من قولنا لهم : صدقنا بمحمد ، عليه السلام ، وما جاء به مستهزئون ؛

فأخبر الله تعالى أنه يستهزئ بهم ، فيظهر لهم من أحكامه في الدنيا ، يعني من عصمة
دمائهم وأموالهم خلاف الذي لهم عنده في الآخرة ، يعني من العذاب والنكال .ثم شرع
ابن جرير يوجه هذا القول وينصره ؛ لأن المكر والخداع والسخرية على وجه اللعب والعبث
منتف عن الله عز وجل ، بالإجماع ، وأما على وجه الانتقام والمقابلة بالعدل والمجازاة
فلا يمتنع ذلك .قال : وينحو ما قلنا فيه روي الخبر عن ابن عباس : حدثنا أبو كريب ،
حدثنا عثمان ، حدثنا بشر ، عن أبي روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس ، في قوله تعالى
: (الله يستهزئ بهم) قال : يسخر بهم للنقمة منهم .وقوله تعالى : (ويمدهم في طغيانهم
يعمهمون) قال السدي : عن أبي مالك ، وعن أبي صالح ، عن ابن عباس ، وعن مرة ، عن
ابن مسعود ، وعن أناس من الصحابة [قالوا] يمدهم : يملي لهم .وقال مجاهد : يزيدهم
قال ابن جرير : والصواب يزيدهم على وجه الإملاء والترك لهم في عتوهم وتمردهم ،
كما قال : (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم
يعمهمون) [الأنعام : 110] .والطغيان : هو المجاوزة في الشيء . كما قال : (إنا لما طغى
الماء حملناكم في الجارية) [الحاقة : 11] ، وقال الضحاك ، عن ابن عباس : (في

طغيانهم يعمهون) في كفرهم يترددون . وكذا فسرہ السدي بسنده عن الصحابة ، وبه يقول أبو العالية ، وقتادة ، والربيع بن أنس ، ومجاهد ، وأبو مالك ، وعبد الرحمن بن زيد : في كفرهم وضلالتهم . قال ابن جرير : والعمه : الضلال ، يقال : عمه فلان يعمه عمها وعموها : إذا ضل . قال : وقوله : (في طغيانهم يعمهون) في ضلالهم وكفرهم الذي غمرهم دنسه ، وعلاهم رجسه ، يترددون [حيارى] ضلالا لا يجدون إلى المخرج منه سبيلا ؛ لأن الله تعالى قد طبع على قلوبهم وختم عليها ، وأعمى أبصارهم عن الهدى وأغشاها ، فلا يبصرون رشدا ، ولا يهتدون سبيلا . [وقال بعضهم : العمى في العين ، والعمه في القلب ، وقد يستعمل العمى في القلب أيضا : قال الله تعالى : (فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) [الحج : 46] ويقال : عمه الرجل يعمه عموها فهو عمه وعامه ، وجمعه عمه ، وذهبت إبله العمهاء : إذا لم يدر أين ذهبت .